## (سيريانا).. تعاطفٌ معنا أم ترسيخ لعجزنا؟!

أعتقد أن تحليل الفيلم الأمريكي (سيريانا) ليس بالأمر السهل، فهو مثال جيد على الأفلام المعقدة وذات الحبكة المُحكمة، ويحتاج المشاهد لفهمه إلى التركيز بشدة على محاور القصة التي تسير بالتوازي دون أي تقاطع، ليكتشف في اللحظات الأخيرة تجمع الخيوط لتشتبك معاً في نقطة واحدة، وهي التي تشير بجرأة بالغة إلى أن كل ما يجري في عالمَي السياسة والأعمال ليس إلا خطة مرسومة لمصلحة فئة قليلة من المتنفذين في الولايات المتحدة، وبهذا يمكن فهم شعار الفيلم الذي رافق ملصقاته: "كل شيء مترابط"!.. فالجميع مدان بطريقة أو بأخرى في هذا الفيلم: الأمريكيون، العرب، الباكستانيون، الإيرانيون، وحزب الله، إذ يسعى الجميع إلى تحقيق مصالحه في هذه المنطقة الحساسة من العالم، باستثناء عنصر واحد لا نرى له وجوداً يذكر في الفيلم.. وهو إسرائيل!

الفيلم من تأليف وإخراج (ستيفن جاجَن) الحاصل على جائزة الأوسكار عن سيناريو فيلم (المرور/Traffic) عام ٢٠٠٠، وقد استوحى قصة فيلمه من كتاب (لا أرى شرّاً/See No Evil) لمؤلفه (روبرت باير) والذي كان عميلاً للمخابرات الأمريكية (سي آي إيه) ومسؤولاً عن ملف الشرق الأوسط خلال ثلاثين عاماً، حيث يدور الكتاب حول أسرار هذه المخابرات وعلاقتها بشركات النفط وبملاحقة خلايا **الإرهاب** في العالم الإسلامي. وقد أنتج الفيلم عام ٢٠٠٥، وحظي باهتمام كبير في دور العرض الأمريكية والعالمية، وفاز النجم جورج كلوني عن دوره فيه بجائزة الأوسكار لأفضل ممثل في دور مساعد.

obeikandl.com

## قصة الفيلم

يؤدي (جورج كلوني) دور العميل للاستخبارات الأمريكية (بوب بارينز)، حيث يُطلب منه بيع صاروخين لإحدى الجماعات في طهران بهدف الإيقاع بها وتفجيرها، ولكنه يفاجأ بأن أحد الصاروخين سيسلم على الفور إلى (إرهابي) مصري؛ الممثل المصري **عمرو واكد**، وتظهر المفارقة عندما يعدّ (بوب) تقريراً لقادته في واشنطن عمّا جرى، ولكن قادته لا يكترثون للأمر لسبب غير مفهوم، مع أنهم صرحوا له بأن الخطر لا يأتي من إيران التي يحكمها الإصلاحيون -وكان ذلك في عهد خاتمي- ولا من العرب المتحالفين مع أمريكا، بل من «الذين يريدون أن يردوا العالم إلى ما كان عليه قبل أربعة عشر قرناً». ونتيجة لهذا التقصير؛ تتحقق مخاوف (بوب) وينفجر الصاروخ في ناقلة نفط أمريكية عبر عملية فدائية ينفذها شاب باكستاني يائس؛ الممثل الإيراني مظهر منير، بعد طرده من عمله في شركة نفطية عربية.

وفي عملية أخرى يسافر (بوب) إلى لبنان متخفياً في شخصية رجل كندي لملاحقة ولي عهد إمارة عربية نفطية (الأمير ناصر السباعي)؛ الممثل السوداني الأصل **ألكساندر صدّيق**. فيلجأ إلى أحد قادة حزب الله (سيد حسين هاشمي)؛ الممثل **محمد مجد**، ليأخذ إذنه ويطمئنه بأن مهمته المخابراتية في بيروت لا علاقة لها بالحزب، وكأن بيروت تقع كلها في قبضة حزب الله الذي يجب أن يوافق على كل ما يجري فيها، ثم يطلب (بوب) المساعدة من عميل إيراني (الموسوي)، والذي يتصرف أيضاً في بيروت كما يشاء في إشارة إلى النفوذ الإيراني في لبنان، ولكن الموسوي يفاجئ صديقه (بوب) باختطافه وتعذيبه بوحشية للحصول على أسماء الجهات التي أرسلته، ولولا تدخل حزب الله لإنقاذه في اللحظة الأخيرة لقُطع رأسه!

في الوقت نفسه يعيّن الأمير ناصر المحللَ الاقتصادي الأمريكي (برايان) مستشاراً له، الذي يحرص على تحذير الأمير مما يحاك من مؤامرات للاستحواذ على النفط بين كل من والده وشقيقه وبين الأمريكيين، فيحتدم التنافس بين الأمير ناصر وشقيقه الأصغر الأمير مشعل؛ الممثل **أكبر كرتزا**، على خلافة والدهما الأمير حمد السباعي؛ الممثل **ناظم صوالحة**، ولما كان الأمير ناصر يحمل أفكاراً **تنويرية** لإصلاح بلاده، ويسعى إلى التمرد على الغرب بتصدير نفطه إلى الصين بدلاً من الولايات المتحدة، فإن العميل (بوب) يكتشف أخيراً أن الهدف من تكليفه بملاحقة الأمير هو قتله، ولكنه يتمرد على أوامر قادته ويحاول إنقاذ الأمير فيُقتل الاثنان معاً عبر صاروخ أمريكي موجه بالأقمار الصناعية!

## رموز ورسائل وصور نمطية

الفيلم مليء بالرموز والإشارات السياسية والإيديولوجية، التي يتطلب تفكيكها إعادة المشاهدة أكثر من مرة، فضلاً عن الصور النمطية التي لا يسلم منها طرفا الصراع الأمريكي والعربي، ولعل الصورة الأكثر تنميطاً للمسلم (الإرهابي) هي تلك التي يجسدها **عمرو واكد** في دور (محمد شيخ عجيزة)، فنرى شاباً ملتحياً بملابس خليجية، يخفي وراء ابتسامته المصطنعة الكثير من الحقد والشر، ويحسن اصطياد الشباب العاطلين عن العمل ليعوضهم عن الفقر والشعور بالغربة بإقحامهم في جماعته، حيث يجدون الطعام والمأوى والترفيه فضلاً عن الشعور بالانتماء، ومن خلالها تُغسل أدمغتهم ويتحولون إلى قنابل موقوتة لتنفيذ العمليات الانتحارية. ومع جرأة الفيلم على إشراك الغرب في المسؤولية من خلال تواطئه مع الحكام الفاسدين لنهب خيرات الشعوب العربية والمسلمة، فقد وقع في مطب اتهام الفقر بكونه المحرض الأول على **انتحار** هؤلاء الشباب، وهو ادعاء لا يمكن تعميمه لعلمنا بأن الكثير منهم ينحدر من عائلات ميسورة.

من جهة أخرى، يفاجئنا المخرج بصورة نمطية صادمة لحزب الله

obeikandl.com

ومواقع نفوذه في بيروت، كما تبدو المدينة الجميلة على الهيئة التي كانت عليها خلال الحرب الأهلية، فلا نرى سوى الدمار والفقر والشباب المسلحين يملؤون الأزقة والأسطح وكأنهم في حالة استنفار لهجوم محتمل!

أما المرأة الخليجية فظهرت في صورتها التقليدية مع تعليق بصوت (مات ديمون)؛ المحلل برايان، يختزل فيه رؤيته للبلاد على أنها نساء يرتدين العبايات السود ويمشين خلف الرجال بخمسة أمتار، ورجال يرتدون ملابس بيضاء نظيفة ولا يضطرون للعمل في ذلك الجو الحار فيسندون مهمة خدمتهم إلى العمالة الآسيوية! وتكاد الصورة التي يقدمها الفيلم للعرب والمسلمين تكون سيئة بالكامل، فهم متخلفون، كسالى، عنيفون وإرهابيون، أما حكامهم فمتواطئون مع الطغمة السياسية والرأسمالية في الغرب.

أما ما قيل عن تعاطف الفيلم مع العرب بإظهارهم في موقع الضحية للإمبريالية الأمريكية، فهو -في رأيي- إجحاف مضاعف، فالفيلم يتناول ما يجري في المنطقة بمفاهيم ورؤى استشراقية، والحالة **الإيجابية** الوحيدة للعرب نراها في المشهد الذي يعلن فيه الأمير ناصر لمستشاره الأمريكي عن خطته لإصلاح بلاده بتعديلات سياسية استقاها من دراسته في أكسفورد، وكأن الإيجابي العربي الوحيد هو ذاك الذي تعلم في الغرب وعاد إلى بلاده المتخلفة بأفكار التنوير الأوربية!

ومع أن تصوير معظم مشاهد الفيلم في دبي والمغرب، فقد فوجئت أجهزة الرقابة الإماراتية فيما بعد بمشاهد غير مقبولة واشترطت حذفها قبل عرضها في الدور المحلية، ومن أهمها مشهد يظهر فيه جنود عرب يضربون العمال الآسيويين على الحدود، إضافة إلى الغمز الذي يتردد على لسان (مات ديمون) عندما يشير إلى قيام شركة بن لادن بأعمال

obeikandl.com

التكييف في الحرم المكي وجنيها بذلك المليارات، وهو أسلوب معروف في الدعاية الإعلامية (البروباغاندا) حيث يُربَط بين أمرين في جملة ظاهرها البراءة وباطنها الاتهام!

**الضربة**

لم يكتف العرب والمسلمون الذين شاركوا في الفيلم بترسيخ هذه الصور النمطية، بل قدموا لصنّاعه خدمة إضافية مجانية، فالانطباع الأهم الذي يحصل عليه المشاهد من الفيلم هو أن العرب والمسلمين ليسوا مجرد شعب متخلف وغرائزي، أو حتى فئة مقهورة من الناس، بل هم أقل شأناً من أن يفهموا حقيقة المؤامرة التي تحاك لهم، حيث يتساءل الأمير ناصر أمام مستشاره الأمريكي عما يجري في المفاوضات بين أخيه مشعل والأمريكيين ليصرخ المستشار في وجهه ويوقظه من غفلته، فالأمريكيون يريدون الاستحواذ على تسعين بالمئة من احتياطي النفط العالمي الذي ما زال في بلاده في الوقت الذي ينفق فيه الأمير ملايين الدولارات في واحدة من حفلاته. والأسوأ من ذلك أن تجابه صحوة الأمير وسعيه لتحريك الشعب للتمرد على أخيه برفض أمريكي عاجل، فالقوة الأسطورية لأسياد واشنطن لن تتضرر برفض العميل (بوب) الانصياع لأوامرهم وقتل الأمير الشاب، ولا يتطلب الأمر سوى توجيه صاروخ من الفضاء الخارجي لقتله في بلاده ووسط حراسه، وكأن الأمريكيين يسيطرون على الأرض والسماء معاً، ولن يقف شيء في وجه مصالحهم.

الأمر نفسه يتكرر على الجانب الأمريكي عندما يعجز محام أسود عن التصدي لقضية الفساد التي يكتشفها في إحدى كبريات شركات النفط المتواطئة مع الأمير العربي، بل ينال المحامي الشريف سخرية لاذعة في وسط الشارع لمجرد بحثه عن العدالة، ونسمع الحقيقة المرة التي تُعلن

على مسامع المارة: «الفساد هو ما يحمينا»، وهو الفساد نفسه الذي يتسبب في إهمال نمو الخلايا الإرهابية، وهو الذي يذهب ضحيته العميل (بوب) بمجرد أن يصحو ضميره. وبهذه النهاية السوداوية يسقط الكثير من الاحتمالات ويبقى الشعور المحبط بعدم جدوى التغيير، فإدانة الشر في الأعمال الأدبية والفنية لا تكفي ما لم ينتهِ الحال بإقامة العدل وإعادة التوازن إلى ذهن المتلقي.

المفاجئ هنا هو احتفاء الإعلام العربي بالمشاركة **المشرفة** للفنان الشاب عمرو واكد في هذا الفيلم، وتنظيم ندوة جماهيرية في قصر السينما بالقاهرة لجمعه مع معجبيه، وكأن ظهور اسم ممثل عربي في فيلم عالمي هو بحد ذاته شرف يرفع رؤوس العرب حتى إن كان في صورة نمطية مسيئة!

ومن الجدير بالذكر أن الممثل السوري غسان مسعود، الذي فُتح له باب العالمية بعد أداء دور صلاح الدين في فيلم (مملكة السماء)، كان قد رفض دور الأمير حمد السباعي ليقبل به الممثل ناظم صوالحة، ومع أن عمرو واكد رفض المشاركة في فيلم أجنبي آخر مسيء للإسلام، حسب قوله، فقد قبل المشاركة في هذا الفيلم؛ لأنه يفضح الجرائم التي ترتكبها أمريكا للاستيلاء على ثروات دول الخليج، ولأن جميع الممثلين يجسدون شخصيات إنسانية بمن فيهم الإرهابي، وهو يؤمن بأن الجمهور والرقابة في مصر سيفهمون رسالة الفيلم ولن يسيئوا الفهم(١)، وكأن القضية الأهم هنا هي عدم استياء الجمهور المصري وعدم منع الفيلم من العرض من قبل الرقابة المصرية، دون الالتفات إلى أن الدور الذي قام به سيكرّس الصورة النمطية للإرهابي المسلم لدى ملايين المشاهدين الغربيين، وربما بعمق لم يسبق له مثيل من خلال تفاصيل الحياة اليومية لقائد الخلية

(١) لقاء مع موقع في الفن، ٧ أيار/مايو ٢٠٠٦.

المسلم بين جماعته وتلاميذه، والحوارات المفصلة التي تربط الإرهاب بالعفة وصلاة الجماعة وتعلم القرآن!

من جهة أخرى، لم يتنبه الكثير من النقاد العرب إلى أن الممثل البريطاني (**ألكساندر سيديج**) الذي قام بدور الأمير ناصر قد وُلد في السودان لأب سوداني وأم بريطانية واسمه الأصلي صدّيق الطاهر الفاضل المهدي، وأن أصوله تعود إلى مؤسس الحركة المهدية محمد أحمد المهدي، وأنه ابن أخي رئيس الوزراء السوداني السابق (الصادق المهدي).

شارك (صدّيق) في سلسلة (Star Trek) التلفزيونية منذ موسم **١٩٩٣** حتى **١٩٩٥** محتفظاً باسمه الحقيقي صدّيق الفاضل، ثم قرر تبديله لاحقاً للمزيد من الاندماج، وعاد إلى الأدوار النمطية المسيئة عندما ظهر في دور الإرهابي العربي (أسعد) في الموسم السادس من المسلسل البوليسي الشهير (٢٤) والذي عُرض على إحدى قنوات مجموعة (mbc) عام ٢٠٠٨.

openkandil.com